الجزء الخامس
الفصل السابع

بين أشجار الصنوبر، على الحشائش الخضر تتـوهج بـشعاعات الـشمس الأرجوانية قبل أن تغيب وراء الجبل الأجرد، جلست سلمى في حلقة من العراقيات يبدون في ملاءاتهن السود أشبه بسرب من السنونو حططن على غدير..

كان البستاني يسقي شجر الصنوبر فيجري الماء فـي أخاديـد غـيلا بـين الأشجار فيبدو كشبكة من لجين أو خيوط القصب تلفّ بها حسناء شعرها الجعد..

وراحت احداهن تغني بصوت حنون زادته بحة خفيفة شجوا أغـان شـعبية عراقية.. وكان أحب الأغاني العراقية لسلمى أغنية زجلية تصف مأساة حب عفّ لا أمل فيه.. ليست كلمات شعرية، بل هي أنفاس ملتهبة تستثير كـوامن أشـجان سلمى، وهي مستلقية على الحشيش معتمدة رأسها بيدها وقد انفردت حولها تنـورة ثوبها الأزرق الفضفاضة.. صدرها يزخر بعواطف مخنوقـة.. ولحمـة حياتهـا مشاعر وأوهام وذكرى.. انها لتفهم مشاعر وأحاسيس حواء اذ برمت بالنعيم.. انها لتستحق وساما اذ رفضته خاليا من الحب والأمومة والفناء فيهما.. لقـد أسـعدت العالم وخلّصته من الملل القاتل في دار الخلود!..

ونظرت الى شجرة الصنوبر التي تظللها.. وضحكت وهي تنظر الى أوراق الشوكولا الفضية الملونة التي تزينها.. لقد أحبت سلمى الشجرة الوارفة، ففي ظلها طالما حلمت وتأملت وناجت الأحبة.. فانتقل عدوى الحب لكل من أحـب سـلمى يمررن بها فيهززن أغصانها ويحفرن عليها أسماءهن ويزينها ويجعلنهـا محطـة ندوة وسمر..

وعند المساء تجلس على الطاولة الرحبة في المخبر، بعد ميعاد النـوم فـي الغرف، تنسج قصة أو تترجم أخرى على ضوء المصباح الساطع على يـسارها وقد انتشر في الغرفة رائحة الأدوية المختلفة..

دخل الممرض كريم وأخذ يتلهى بتنظيـف الميكروسـكوب علـى طـرف الطاولة.. لماذا دخل الآن يبعثر نظيم أفكارها؟..

- آنسة سلمى.. أود أن آخذ رأيك في قصة كتبتها.. وضحكت سلمى:
- أنا! لا تعتمد كثيرا على رأييي.. انني نفسي أتمنى لو كان قربي ناقد فني يوجهني ويأخذ بيدي فيستنير طريقي.. تروعني مثلا زهرة فأسبى بتناسق ألوانها وأنتشي بأرجها، ولكن ربما عجزت أن أصنفها، أو أخبرك باسمها وفصيلتها ومكانتها بين الأزهار.. النقد الصحيح يحتـاج الـى الدراسـة ولست مؤهلة له..
- لست أبغي نقدا فنيا.. خبريني عن شعورك نحوها، اذا كـان الأمـر لا يزعجك.. فأنا أثق بذوقك..
- ولو كان صارما! انني لا أحسن المجاملة.. والذوق ميزان كما تعلم غير ثابت الحرارة..

وما لبث أن أحضرها، وراحت سلمى تقرأها بصمت.. أتقول له بأنها تـشبه ثوبا حريريا به رقع من خيش؟

- هناك بعض المواقف تتوهج بصدق العاطفة.. ووصفك للفتاة حسن، واذا حاولت أن تنقح هنا بعض المواقف والجمل الركيكة والأخطـاء اللغويـة استطعت أن تجعلها ناجحة.. ولكنني أفكر: لم تنـتهج أدبـا متـشائما؟.. الموضوع فيه الكثير من الكآبة والبكاء على الأحباب بغير ومـضة مـن كفاح أو ذرة من عزاء.. حقا تناثرت في الحياة أشـواك كثيـرة تـدمي القلوب ولكنها لا تكون بحيث لا يحتملها الإنسان!.. وتنهد:
- انك لم تجربي قسوة الحياة.. وابتسمت سلمى بمرارة:
- ربما!..
- -لم تجربي قسوة الحياة بغير ومضة من حنان أم أو أخت.. أنظري الى ذراعي! انها من أثر ضرب مبرح انهال به علي والدي وأنا طفل فتـرك ذراعي أشلّة..
- هل هذا معقول؟ أيفعل أب هذا بابنه؟ كان يرتجف وهو يتحدث:

- كنت أصغر إخوة ثلاثة ورثوا الفظاظة عن والدي.. كانوا أقوى مني، لا يردعهم وازع من ضمير أن يجعلوا من حياتي جحيما.. لقد هربت منهم شريدا وحيدا في الطرقات.. انهـا قـصة طويلـة.. والآن أهـذه كـل ملاحظاتك؟ سآخذ بها وأطور نفسي.. لقد أخرتك عن كتابتك..
- أبدا.. أحب أن أستمع الى القصص وخصوصا ما كانـت مـن صـميم الحياة.. ملاحظة أخرى عن القصة.. كأنها قصة مترجمـة أكثـر منهـا موضوعة من صميم حياتنا العربية.. لا وطن لها ولا ملامـح تطبعهـا بمكان معين..
- انني متأثر بأسلوب روايات الجيب.. ولكن القصة حقيقية بل انها وقعـت هنا في المصح.. وهذه بطلتها..
- وأخرج صورة من جيبه وناولها الى سـلمى.. وأخـذت تتأمـل القامـة الفرعاء والقد الرشيق والوجه الوسيم والعينين الحوراوين.. ان فيهما شيئا يشبه عيني رجاء وترتعش قليلا للمقارنة المفاجئة..

كانت سلمى تعرف القصة بحذافيرها.. لقد سمعتها من السيدة نجـاح التـي أخبرتها أن الفتاة كانت تشفق عليه لما يبديه من حب جنوني نحوهـا.. ولـم تعطه الصورة الاّ حين هدد بالإنتحار، وشرب فعلا كمية من الإسبرين كـاد يفقد معها حياته لولا أن أسعف في اللحظة المناسبة.. وكانت تعلم أنهـا لـن تعيش وقد توغّل عندها المرض وترقب نهايتها يوما بعد يوم.. فرفقت به ولم تقس في معاملته وبادلته بعض الود.. ولكن سـلمى أحبـت أن تـستدرجه ليتحدث عنها.. وكان راغبا في الحديث يمهد له وينتظر اللحظـة المناسـبة ليفيض به الى أحد يصغي اليه..

راح يسهب بوصف ذلك الغرام المتبادل الذي نما في قلبيهما.. وراح يصف أيامها الأخيرة بما ناء به صدر سلمى..

- كنت أعلم أنها ستموت.. فلقد تغلغلت علّتها.. وتاريخ المرضى في سجلّ المستشفى يثبت لي أن لم يبلغ أحد ما بلغت من تفاقم المرض وشـفي.. كان في صدرها ثلاثة جراح، أزمنت فغدا شـفاؤها عـسيرا مـشكوك

النتائج.. ولكن حيويتها وجمالها يخدعانني فأكـذّب البـراهين وأصـدق أحاسيسي وبوارق آمالي.. فكانت الصدمة فوق احتمالي حين نفذ المـوت فيها وعيده.. وحاولت الإنتحار فأنقذوني وبقيت سبعة أيام بلياليها تحـت تلك الشجرة المنفردة في آخر المصح حيث تجلسين للمطالعة، فـي نفـح البرد في قارس الشتاء لا أطعم ولا أشرب ولا يدري أحد بمقري.. لقـد وجدوني هناك في حالة يرثى لها وقد أغمي علي فحملوني وردوا الـي الحياة.. صمت بعد ذلك فسألته:

- وكيف تعزيت؟..
- تعزيت!.. صورتها.. انني أشعر أحيانا أنهـا لـم تمـت ولا يمكـن أن تموت!..

رن جرس التاسعة يدعو المريضات للراحة والنوم ولم تكن سلمى قد خطت كلمة على الورق.. وانسابت الى غرفتها ولكنها لم تقو على ولوج غرفتهـا فمالت الى الشرفة والكآبة تهصر روحها.. رباه، لكأنما ينعـى لهـا رجـاء حبيبتها الغالية..

ليلة هادئ نسيمها، عاصف في قلب سلمى هواجسها.. لم تشعر بوطأة القلق الوحشي كما تشعر تلك الليلة.. لقد اقترحت عليها القدوم الى مصح دمشق.. وشلّ الخوف من هذه المغامرة إرادتها.. مهدت لها كل سبيل خلال الـشهر الماضي في وزارة الصحة لقبولها ولم يبق إلاّ موافقتها.. ولكن الهـواء! ان الهواء هناك لا يبارى.. والإختصاصيين!.. وابتسمت بمرارة: على كل حال ليسوا أكثر جهلا ممن يفدون الى هنا واحدا إثر الآخر.. الكل ينـال خبرتـه على جثث ضحايا كثيرة، وينالون بها شهرتهم.. ووسائل الترفيه والتسلية!.. لا سينما ولا رحلات ولا فرق كشفية ولا زميلات يمكـن لهـا أن تنـدمج معهن.. ربما اعتادت الجو هناك، وكونت صداقات يعز عليهـا أن تفـارق أصحابها.. فكيف تقلق راحتها؟.. ولكنها مرغمة، لايمكن لها أن توفّر لهـا كلا الهواء والدواء في لبنان.. كان عليها أن ترجح وتختار.. ولقد استشارت الرئيسة وطبيب رجاء الدكتور فضل والطبيب الجديد عندها في المـصح..

وكلهم رجحوا لها الدواء.. أتراها تخطئ أو تصيب فيما خطته لها.. لا تدري أين يكمن الخير.. تأوهت:

- رباه! أترك لمشيئتك الإختيار! إبعد عني الهواجس السوداء..

لم تشعر بالرغبة للإستسلام الى القوى الخفية تقودها كما شعرت في تلك اللحظة.. رفعت عينين أخفى الظلام ما انهمر منهما من دموع متأنية، وهتفت من كبد حرى:

- لتكن إرادتك ياالله.. إهدني الى ما فيه الخير لها فلست أرى طريقي!..

رقد الجميع إلاّها.. وأطفئت أنوار الغرف، ووقفت وحيدة يعصر الخوف والوحشة قلبها بأصابع باردة كالموت.. انها تتخيلها مسجاة وقد ارتسم على وجهها الملامح النورانية التي بدت على وجه تلك الفتاة التي وصفها كريم الليلة.. وتشعر بما يمزق صدرها تمزيقا.. وهب النسيم على الأشجار وقد انعكست عليها أنوار الباب الأمامي، وخيل اليها أنها أشباح تهزأ بآلامها فكرهتها.. وخيل اليها أن كريم نذير لها بما يستره الغيب، فكرهته وكرهت الشجرة التي نام تحتها سبع ليال، وكرهت بالتالي طيرتها التي لاتملك لها دفعا عن وجدانها.. وعادت الى سريرها تطوي في صدرها أفعى ناهشة حتى من الله عليها بغفوة منقذة عند الفجر..

* * *